تمهيد

الواقعيـــة الإسلاميـــة
وأدب نجيب الكيلانى

obeikandl.com

obeikandl.com

يعد نجيب الكيلانى (١٩٣١-١٩٩٥) الروائى الإسلامى الأول فى اللغة العربية ، حيث قدم للمكتبة العربية المعاصرة عدداً كبيراً من الروايات والقصص القصيرة ، وهى غالباً محكومة بالتصور الإسلامى وصادرة عنه – ومن خلال هذا الإنتاج القصصى الغزير استطاع أن يقدم النموذج الإسلامى فى الرواية و القصة .

وقد مرّ إنتاجه الأدبى الروائى بمراحل ومستويات عدة يمكن أن نضعها فى أربعة إطارات :

الإطارالأول :

ويمثل الرّواية الواقعية الرومانسية ، ويضم العديد من رواياته ، وقد عبرّ من خلالها عن هموم الناس والعلل الاجتماعية المتفشية بينهم ، مثل الفقر والجهل والأمراض المتوطنة والسلبية والتخّلف ، ومَزَجَ ذلك بالعواطف المشبوبة والخيالات الحالمة والآمال المجنّحة : ويمكن أن نرى أمثلة على ذلك من رواياته : الطريق الطويل ، الربيع العاصف، الذين يحترقون فى الظلام ، عذراء القرية ، حمامة سلام ، طلائع الفجر ، ابتسامة فى قلب الشيطان ، ليل العبيد ، حكاية جاد الله .

الإطار الثانى :

ويمثل الراوية التاريخية ، التى تستلهم السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى بصفة عامة ، وقد استدعى التاريخ واستلهمه ليقّدم النماذج الإنسانية المشرقة من حضارتنا ويرصد جهاد الآباء فى شتى جوانب الحياة ، دفاعاً عن الدّين وسعياً لتأسيس مدٍ غير مسبوق ، وفى بعض الأحيان كان يستعيد التاريخ ليعالج من خلاله قضايا راهنة أصابت الأمة بالإحباط واليأس ، ويوقظ به الأمل فى نفوس الأجيال الجديدة عن طريق إحياء الهمة وبعث العزيمة وتأكيد الإصرار ، وفى كل الأحوال ، فإن استلهام التاريخ فى الرواية

عند " نجيب الكيلانى " ، كان إبرازاً لمعطيات الإسلام العظيمة ، وإمكاناته الهائلة فى تحويل الإنسان المسلم إلى صانع حضارة وبانى مجدٍ وجندى ظافرٍ فى معاركه ضد الشر والتوحش ، ويمكن أن نجد عدداً كبيراً من رواياته التى عبرت عن ذلك مثل : نور الله ، قاتل حمزة ، أرض الأنبياء ، دم لفطير صهيون ، مواكب الأحرار أو نابليون فى الأزهر ، اليوم الموعود ، النداء الخالد ، أرض الأشواق ، رأس الشيطان ، عمر يظهر فى القدس .

الإطار الثالث :

ويمثل الراوية التى يمكن تسميتها بالراوية الاستشرافية التى عبر فيها عن هموم المسلمين خارج حدود العالم العربى (دول آسيا الوسطى التى كانت (سابقاً) تحت الستار الحديدى الشيوعى من الاتحاد السوفيتى ، والصين وأثيوبيا وإندونيسيا ونيجيريا) واستطاع أن يكشف للعالم مأساة داميةً أصابت ملايين المسلمين المنسيين الذين لا يتحدث عنهم أحد إلا نادراً ، ولا يعرف عنهم المسلمون فى العالم العربى إلا القليل ، وفى الوقت ذاته توقع انتصارهم وتحررهم ، وهم ما حدث بالفعل فى أكثر من مكان وبخاصة فى الدول الإسلامية التى استقلت أو تحاول الاستقلال بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، وتعّد رواياته : ليالى تركستان ، الظل الأسود ،عذراء جاكرتا ، عمالقة الشمال ، أشهر رواياته فى هذا الإطار.

الإطار الرابع :

ويمثل الراوية عند نجيب الكيلانى فى المرحلة الراهنة ، وهى التى نطلق عليها الواقعية الإسلامية ، ويعبر فيها عن القضايا الاجتماعية التى تهم جموع االمستضعفين فى الوطن ويبرز فيها ما يلقاه الناس من ظلم وقهرٍ واضطهاد ، ويتخذ من تفاصيل الحياة اليومية والاجتماعية عناصر أساسية يرتكز عليها فى بناء هذه الروايات ، وأيضاً فإنه

يطرح عبر سطورها رؤية الجيل الجديد للأحداث ، وموقفه من قضايا الحرية والعدل والأمن والرخاء والمستقبل ، وتُعد رواياته الأربع أو رباعيته التى أنتجها على مدى عامين تقريباً ونشرت على مدى شهور متقاربة وهى اعترافات عبد المتجلى ، امرأة عبد المتجلى ، قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ملكة العنب [١] .من أفضل النماذج وأبرزها فى الدلالة على هذا الإطار، وهى موضوع دراستنا .

والواقعية الإسلامية تختلف بالضرورة عن الواقعية الأوربية (الانتقادية والطبيعية)، والواقعية الاشتراكية (الماركسية) ،وإن كانت هنالك أسس موضوعية وفنية قد تجمع بينها جميعاً ..

فالواقعية الأوربية واقعية نقدية تعنى بوصف التجربة كما هى ، حتى لو كانت تدعو إلى تشاؤم عميق لا أمل فيه ، حين تحتّم الواقعية الاشتراكية أن يثبت الكاتب فى تصويره للشّر دواعى الأمل فى التخلص منه فتحاً لمنافذ التفاؤل حتى فى أحلك المواقف ، ولو أدى إلى تزييف الموقف بعض الشيء. [٢] .

أما الواقعية الإسلامية ، فإنها – مع انتقادها للواقع – تنطلق فى انتقادها من التصور الإسلامى الذى يكون دائما منصفاً ، فلا يبالغ ولا يهوّل ، أيضاً لا يتحامل بسبب

١- أشار الكاتب فى نهاية الرواية الرابعة (ملكة العنب) ، إلى أنه أتمها فى السابع من صفر ١٤١٢هـ الموافق ١٧أغسطس ١٩٩١م ، وكان قد أشار فى آخر رواية (امرأة عبد المتجلى) إلى إتمامها فى ٢٥/ ٧/ ١٩٩٠م، مما يعنى أن كتابة الروايات الأربع استغرقت سنتين تقريباً ،وقد صدرت الأولى (اعترافات عبد المتجلى) عن مؤسسة الرسالة ، بيروت عام ١٤١٢هـ -١٩٩١ .أما الثانية والثالثة (امرأة عبد المتجلى وقضية أبو الفتوح الشرقاوى) فقد صدرتا عن المؤسسة ذاتها عام ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م .كما صدرت الرواية الرابعة (ملكة العنب) عن دار ابن حزم ، بيروت فى العام نفسه ،أى إن الروايات الأربع نشرت جميعاً فى عام هجرى واحد هو عام ١٤١٢هـ ، وترجع سرعة الإنتاج والنشر إلى تفرغ الكاتب للكتابة بعد إحالته على التقاعد عام ١٩٩١م ، واستقراره فى قريته شرشابة غربية .

٢- محمد غنيمى هلال ، الأدب المقارن ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، د .ت ، ص ٣٨١، وانظر : عبد الباسط بدر مذاهب الأدب الغربى – رؤية إسلامية ، منشورات لجنة مكتبة البيت وشركة الشعاع للنشر الكويت ،ـ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ، ص ٥٤.

المغايرة ، فى الانتماء ، ولا يحبذ الصراع بين الطبقات كما يبتغى الواقعيون الاشتراكيون ، فضلا عن أن الأمل فى الواقعية الإسلامية ، هو أمل إيمانى يقوم على أساس نُصرة الله فى كل الأحوال ، حياة وموتاً .إنها باختصار ترفض التشاؤم كما ترفض التفاؤل الذى يقوم على الخداع أو التزييف ، ثم إنها تستسقى مادّتها من الحياة الاجتماعية ، ومشكلات العصر على إطلاقها ، وتختار شخوصها من عامة المجتمع وجميع طبقاته ، لأنها تعتقد بأن الخير والشر ليسا قاصرين على طبقة بعينها . ولكنهما موجودان فى النفس البشرية ،أيّاً كانت طبقتها أو انتماؤها الطبقى ، وأن الإنسان يمكن أن يكون خيّراً أو شريراً وفقاً لاختياره ، وعوامل أخرى مؤثرة فى هذا الاختيار من قبيل التربية والتوجيه والقدوة والظروف المحيطة ..؟إلخ لذا؛ فإن الطبقة ليست هى العنصر الحاسم فى الصراع بين الخير والشر ، وإنما الإرادة الفردية ومكوناتها ...وهو ما يتسق مع التصور الإسلامى :

(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠).[١]

وإذا كانت الواقعية الانتقادية والواقعية الاشتراكية توجهان سهام نقدهما للطبقة الوسطى (البرجوازية) لأنها ظلمت الطبقة الدنيا ، وأنزلت بها أسوأ أنواع القهر والغبن ، عندما وصلت إلى السلطة [٢].فإن الواقعية الإسلامية ، ومن خلال روايات نجيب االكيلانى ، تنتقد الفئة الظالمة والأفراد الظالمين أيّاً كان انتماؤهم ، إلى الطبقة العليا أو الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا ، على السواء ، فهناك من يوّجه إليهم الانتقاد ممن يُعدّون فى الطبقة العليا أو الطبقة الوسطى (الحكام – الضباط – رجال الأعمال) وهناك

١- سورة الشمس : الآيات ٩-١٠.
٢- الأدب المقارن ، ٣٧٧

من يوجه إليهم الانتقاد من الطبقة الدنيا (العمال ، الفلاحين ، صغار التجار) ،وهكذا فالشر موجود فى كل الطبقات والخير أيضاً .

والواقعية الإسلامية من هذا المنطلق تمثل الصياغة الفكرية والتطبيقية لمفهوم االأدب الإسلامى ، فى صورته المقبولة ، والمؤثرة فى مجال الرواية والقصة على وجه االخصوص ، حيث تحقق الغاية الخلقية و الفنية لعملية الإبداع الأدبى ، وإذا كانت بعض التيارات الأدبية تعارض أن يكون للأدب غاية خلقية ،فإن الواقعية الإسلامية لا يمكنها أن تتخلّى عن هذه الغاية التى ألحّ عليها كثيرون فى الماضى والحاضر .لقد أكدّ " أوسكار وايلد " على الرسالة الخلقية للفن بالمعنى الواسع ، وتعنى هذه الرسالة لديه : مساعدتنا على فهم الحياة ، وقد آمن بهذه الرسالة أفلاطون وأرسطو من قبل ، ثم مونتانى وموليير من الفرنسيين وبن جونسون ودكتور جونسون من الإنجليز (١) .

إن التعبير عن هموم المظلومين والمقهورين والمستضعفين من عامة الناس ، يمثل لبّ الرسالة الخلقية للواقعية الإسلامية ، وهو ما ألح عليه كثيراً ، أدب نجيب الكيلانى بعامة ، ورواياته بخاصة فالطبقة الدنيا المظلومة المقهورة المستضعفة ، حاضرة فى رواياته حضوراً مستمراً دائماً ، ونماذج المظلومين والمقهورين والمستضعفين تملأ صفحات كثيرة فى أدبه ، إلى جانب الاهتمام أيضاً بالنماذج العادلة والقوية والظافرة وفق المفهوم الإسلامى .وهذا الاهتمام بقضايا المجتمع من خلال هذه النماذج أو تلك يأتى استجابة لتوجيه إسلامى كى نهتم بأمور المسلمين اليومية والإجتماعية (٢)..

ولعل اهتمام نجيب الكيلانى بحياة الفلاحين فى القرية المصرية وما يجرى لهم وأيضاً تعبيره عن بسطاء المدينة وما يعانونه ، يمثل ملامح استجابته للتوجيه الإسلامى

١- محمود حامد شوكت ، مقومات القصة العربية الحديثة فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٤م ص ١٤.
٢- انظر مذاهب الأدب الغربى – رؤية إسلامية ، ٥٩.

بالاهتمام بأمور المسلمين الذى يترجم عنه فى واقعيته الإسلامية ذات الرسالة الخلقية وإذا أضفنا إلى ذلك تصدية بالانتقاد للفئة المتحكمة وفساد رجالها والمحيطين بها ، وأيضاً انتقاده لانحراف الأفراد من العامة مع بيان سبب هذا الانحراف ، فإن الصورة تكتمل فى أذهاننا لأسلوب الأدب الإسلامى ومنهجه فى معالجة هموم المجتمع وقضايا الأمة ومشكلاتها .

ومن الجدير بالذكر أن نجيب الكيلانى بذل جهداً تنظيرياً مهماً فى هذا السياق ، للتعريف بمفهوم الأدب الإسلامى وأبعاده فى عديد من الكتب والبحوث المنشورة أهمها كتابان ، أولهما " الإسلامية والمذاهب الأدبية " ، وثانيهما " مدخل إلى الأدب الإسلامى "[1] وفيهما يوضح علاقة الأدب بالدين ، ومفهوم الالتزام الإسلامى فى الأدب ، ويقارن بين المذاهب الأدبية السائدة ،ويعرض لمناقشةبعض القضايا التى تتعلق بالأدب الإسلامى وتثير العديد من التساؤلات ، سواءً من المؤيدين للأدب الإسلامى أو المعارضين مع إشارة لبعض الأدباء الإسلاميين فى العصر الحديث أمثال :أحمد شوقى وحافظ ابراهيم ، ومصطفى صادق الرافعى ، وأحمد محرم ، وتقديم نماذج معقولة للأدب الإسلامى ، كما ركز على الدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية الفصحى فى الكتابة والتعبير بوصفها البيان الأدبى الأرقى للأسلوب .

إن كفاح نجيب الكيلانى لتقديم الراوية أو القصة الإسلامية ، يمثل انعطافة كبيرة فى مسيرة الأدب الإسلامى ، ليس فى مواجهة أعدائه فحسب ، بل فى مواجهة بعض ضيقى الأفق الذين يرون فى الأدب عموماً ، ترفاً يجب أن يترفع عنه المسلمون ، وما علموا أن العلاقة بين الأدب والدين علاقة حميمة .أو كما صورها هنرى برجسون بأنها علاقة

١- صدر الكتاب الأول عن مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ، وصدر الثانى ضمن سلسلة كتاب الأمة الذى تصدره دولة قطر عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، وكان رقمه فى السلسلة "١٤".

نسب ، عندما قال : إن الفن ابن الدين [١] ونسوا أو تناسوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستجيد الشعر ويستنشده وكان يحث حسّاناً على استخدام شعره فى معركته ضد المشركين ، ويعدّ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أول ذواقةٍ للشعر وناقدٍ له من الخلفاء الراشدين .

ومهما يكن من أمر ، فإن دخول نجيب الكيلانى إلى مجال الواقعية الإسلامية فى الرواية يعد نقلة أكثر تطوراً وعمقاً ، لأنه يواجه المجتمع بمشكلاته المزمنة والمؤرقة مواجهة جادة ملتزمة ،مع ما قد تجره عليه هذه المواجهة من متاعب شخصية واجتماعية تعوَّد عليها منذ مطلع شبابه .

ثمة ملمٌح أخيرٌ تختلف فيه الواقعية الإسلامية عن الواقعية الانتقادية والواقعية الاشتراكية ، وهو الناحية الأسلوبية ، فالواقعيون – بعامة – لا يحبون المبالغة فى العناية بالأسلوب ، لأنه وسيلة لا غاية ، والأهمية كله للمنطق ، وللطريقة التى تسود ترتيب الأحداث والتعبير عنها [٢] .

والواقعية الإسلامية – فيما أتصور – تحرص على الأسلوب وتعنى به ، لأنه يمثل – بطريقة ما – عناية باللغة وارتقاء بها وسمواً ببيانها ، وهو ما يعنى فى حقيقة الأمر ، الحرص على قيمة جمالية كبرى من قيم البيان العربى ، ولعل التفوق الأسلوبى لدى بعض المشاهير ، كان سبب شهرتهم فى المجال الروائى ، سواءً كانوا مخلصين للواقعية الانتقادية أو الواقعية الاشتراكية ، أو الرومانسية أو غيرها ، بدءاً من مصطفى لطفى المنفلوطى حتى نجيب محفوظ ، مروراً بآخرين من أمثال على الجارم ، محمد فريد

١- انظر : على عزت بيجوفيتش ، الإسلام بين الشرق والغرب ، مجلة النورومؤسسة بافاريا ، الكويت – ألمانيا ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، ص ١٤٨.
٢- الأدب المقارن ، ٣٨٠.

أبو حديد ، ومحمد سعيد العريان ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وعبد الحميد جودة السحار ، وفتحى غانم ...

وقد اهتم نجيب الكيلانى بأسلوبه الروائى ، الذى تحدثنا عنه فى موضع آخر اهتماماً كبيراً ، ولعل ذلك يرجع إلى كونه شاعراً أيضاً ، يملك القدرة على الأداء اللغوى االجيد ، كما يملك معجماً غزيراً يتيح له فرصة التعبير الدقيق والمتسامى عن مختلف المشاعر والأحاسيس ، والصور والمشاهد .

يبقى بعدئذ أن نشير إلى أن الواقعية الإسلامى عند نجيب الكيلانى ، تظل وفيّةللقضايا الإنسانية الكبرى التى تعنى الإنسان المسلم فى حاضره ومستقبله ، وتترفع فى الوقت ذاته عن القضايا المبتذلة والرخيصة التى تتسافل به أو تهبط به إلى درك الحيوانية حيث تبحث عن الإشباع الغريزى وحسب.

obeikandl.com